**المحاضرة الثانية: أدب الرحلة(فن الرحلات)**

**أولا : المفهوم**

أدب الرحلة نوعٌ من أنواع الأدب القديم الذي عُرفَ في المَاضي، وارتبط بالرحلات التي كان يسافرُ فيها الرحالةُ العرب لاكتشافِ أراضٍ جديدةٍ لم تكن معروفةً في السابق، وأيضاً يعرفُ أدب الرحلة بأنه كافة المؤلفات، والمدونات، والمخطوطات التي وصلتنا من العصور الماضية، والتي تحتوي على مجموعةٍ من المشاهداتِ، والقصص التي عاصرها الرحالةُ في الأماكن التي وصلوا إليها، ويشملُ أدب الرحلة على نقلِ مواصفات الطبيعة الموجودة في مناطق العالم غير المكتشفة، وأيضاً يحتوي على سردٍ حول العادات، والتقاليد السائدة عند الشعوب الذين عاشوا في تلك الأراضي، والمناطق.

أدب الرِّحلات هو كذلك نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء [رحلة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%81%D8%B1) قام بها لأحد البلدان. وتُعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، ممتعة ومسلية. عدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات، فهذا المسمى الواسع كما نرى قادر على استيعاب أعمال [ابن بطوطة](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%A8%D8%B7%D9%88%D8%B7%D8%A9) [وماركو بولو](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%83%D9%88_%D8%A8%D9%88%D9%84%D9%88) [وتشارلز داروين](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D9%84%D8%B2_%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D9%88%D9%8A%D9%86) [وأندريه جيد](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%86%D8%AF%D8%B1%D9%8A%D9%87_%D8%AC%D9%8A%D8%AF) [وأرنست همنجواي](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%B1%D9%86%D8%B3%D8%AA_%D9%87%D9%85%D9%86%D8%AC%D9%88%D8%A7%D9%8A) [ونجيب محفوظ](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%AC%D9%8A%D8%A8_%D9%85%D8%AD%D9%81%D9%88%D8%B8)، رغم التباين الكبير فيما بينهم؛ لأن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها، الرحلة الزمانية أو المكانية أو النفسية**.**

**ثانيا: تاريخ أدب الرحلة**

يعد أدب الرحلة من أقدمِ أنواع الأدب المعروفة عند العرب، وقد اهتمّوا بهذا النوع من الأدب اهتماماً واضحاً، فتمّ تسييرُ العديد من الرحلات الاستكشافيّة للتعرفِ على المناطقِ، والبلدان المحيطة بهم، ويعد كلٌّ من الإدريسي، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن فضلان، وابن جبير من أشهر الرحالة العرب، والذين اهتموا بتوثيق رحلاتهم، وكتابة القصص التي حصلت معهم في الأماكن التي ذهبوا لها، ومنهم من اهتم بجغرافيّة تلك الأماكن فعمل على رسم الخرائط التي تقدمُ وصفاً للتضاريس الجغرافية التي تعرفوا عليها. يعدُّ القرن السادس الهجري من أكثر القرون العربية، والإسلامية التي شهدتْ نهوضاً ملحوظاً بأدبِ الرحلة، والذي احتوى على العديد من قصص الرحلات التي ألّفها الرحالة العرب، والذين كانوا يُسافرون من الجزيرة العربية لاكتشاف المناطق المحيطة بهم، أو الذين كانوا يسافرون من بلاد شمال إفريقيا، والأندلس إلى الجزيرة العربية بهدف الحج، والتعرف على الحضارة العربيّة الموجودة في تلك المنطقة. شَهِدَ القرن الحادي عشر للهجرة العديد من قصص الرّحلات التي تمكّنَ فيها الرحالة العرب من الوصول إلى الكثير من المناطق، والتي لم يكتشفها أي أحدٍ من قبلهم، وأيضاً احتوى على مجموعةٍ من الرحلات التي توثقُ للعديد من الأحداث التاريخيّة المهمة، ومن أهمّها رحلة أحمد الحجري، والمعروف باسم أفوقاي الذي هربَ من الأندلس بعد سقوطها، وقام بتوثيق ما حدث من محاكم تفتيشٍ، والعديد من المشاهدات الأخرى التي جمعها في كتابه حول هذه الرحلة.  
**ثالثا: خصائص أدب الرحلة :**

-يحتوي على مجموعةٍ من القصص والأحداث التي تسهمُ في نقلِ صورٍ تاريخيّة للقراء.

-يصفُ طبيعة، ومراحل الرحلة التي شارك بها الرحالة.

-يهتمُ بتسجيل المعلومات الجغرافيّة حول المناطق الجديدة.

-ينقلُ وصفاً عن العادات السائدة عند سكان المناطق التي وصلها الرحالة.

-يعتمدُ على نقل التاريخ بصورةٍ واقعية، أي يسردُ قصصاً حول شخصياتٍ حقيقية.

**رابعا: أنواع الرحلات  
1 ـ الرحلة العلمية:**من أجل اكتساب الفوائد ورصد ثقافات الأمم ودراسة أخلاقهم وبيان لغتهم وفنونهم مثل :أ ـ رحلة أبي بكر العربيّ والذي طاف الشام و العراق و الحجاز و مصر ثم عاد للأندلس مسجلا أسماء الشيوخ الذين التقاهم في رحلته , والعلماء الذين أخذ عنهم .  
ب ـ رحلة ابن خلدون في كتابه " التعريف بان خلدون " وهو شكل من الاعترافات 

جـ ـ رحلة الإمام الشافعيّ في طلب الحديث الشريف التي أملاها على الجيزي وسجل فيها ما شاهده من معالم وأثار و ما روي عن الإمام مالك , وهي من أقدم رحلات طلب العلم .  
2 **ـ الرحلة الجغرافية:**مثل رحلة القزويني : في كتابه " أثار البلاد وأخبار العباد " وقد عني بوصف المدن وخواص البلدان وأثرها في ساكنيها , وأثرها في النبات و الحيوان و المعادن وتحدث عن حكايات الأمم السابقة , وسجل الغرائب و القصص الخيالية معتمدا على السرد بأسلوب الوصف والقّصّ. وكذا رحلة المقدسي. و رحلة المسعودي ، رحلة ابن حوقل .

3 **ـ الرحلة الدينية**:خاصة رحلة الحج ،و التي اكتسبت أهمية كبيرة لكثرة الذين ارتحلوا طلبا لرضوان الله زيارة الأماكن المقدسة ، مسجلين في رحلاتهم مشاهداتهم من الأماكن المقدسة و البلاد التي مروا بها وما لقوا من علماء و عادات الشعوب وممارساتهم التراثية و حضارة تلك الأمم من لغتهم و مطعمهم و وألوان طباعهم ومن أشهرها :  
أ ـ رحلة ابن جبير " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار "   
ب ـ رحلة ابن بطوطة في كتابه " تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" هو كتاب يصف رحلة ابن بطوطة ، عندما خرج من طنجة قاصدا مكة للحج وعمره 22 سنة , وزار عددا كبيرا من المدن و الاقاليم وتتحدث عن أهلها وحكامها وعلمها واستغرقت رحلته 30 عاما .

ج ـ رحلة التيجاني خرج من المغرب العربي قاصدا مكة للحج فسجل ما شاهده من البلاد واصفا أحوالها وطرفها ومسافاتها و آثارها و مساجدها و المدارس و العيون و الآبار و العلماء و الفقهاء , كما كان لها هدف سياسي وهو استرجاع جزيرة جربة للمسلمين .  
4 **ـ الرحلة التجارية :**فقد وصل التجار للهند و سيلان و اندونيسيا و الفلبين والصين وشواطئ الإفريقية. ومن أشهر الرحلات التجارية البحرية في المحيط الهندي رحلة التاجر سليمان السيرافي في منتصف القرن الثالث , ورحلةياقوت الحموي في مؤلفه " معجم البلدان " .  
**5 ـ الرحلات السياسية**:وهي رحلات أملتها دوافع سياسية أو مهام السياسية أو رغبة في الاستطلاع لخدمة صاحب القرار كرحلة سلام الترجمان الذي كلفه الواثق بالسفر لحصون القوقاز وقلاع الصين للاطلاع عليها ومعرفة خواصها .  
**خامسا: علاقة أدب الرحلات بالفنون الأدبية الأخرى**   
و أدب الرحلات منبثق من الترجمة الذاتية ، فكثيرا ما يمزج المؤلف ما بين الحديث عن مشاهداته بالحديث عن نفسه، وتشترك مع الرواية في الانتقال من لحظة الكتابة إلى لحظة التجربة ، وكذلك استخدام نظام السرد المتسلسل زمنيا ، ولكنه في الرواية و القصة يتسم بالخيال وفي الرحلة يتسم بالحقائق.وتشترك مع السيرة الذاتية في أن بطلها يكون المؤلف،حتى المكان والزمان يعبر عن الذات وفيها تسلسل منطقي، وصدق تاريخي ، الصراع ، الشخوص ، الإفادة من الخيال المقيد بالحقيقة ، والبوح ، وهي أداة تفسير، ونقل التجربة ، والتعبير عن رؤية المؤلف للكون، وتشترك مع اليوميات والمذكرات في بطل الرحلة والحدث والزمن والعقدة والتشويق والحل والحوار.

**سادسا :النزعة القصصية في أدب الرحلة:**

إن وجود النزعة القصصية في أدب الرحلة أمر طبيعي للرحلة، وما يتخللها من حوادث ومواقف تستحث الرحلة على التسجيل، وصياغة هذه الحوادث في أسلوب قصصي يعتمد إثارة الشويق في كثير من الأحيان، والرحلة في حد ذاتها قصة إن لم تتوافر فيها خصائص القصة، فهي تشاركها في بعض خواصها. فإن أدب الرحلة فن يقترب من فن القصة، إن بعض الرحالين جنحوا إلى سرد "القصص التي

عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قربت الرحلة من عالم القصة وإلى جانب السرد نجد حضور الوصف الدقيق والبارع في معظم الرحلات، هذا الذي قرب أدب الرحالة إلى أسلوب القاص. تقول الباحثة نواب: "الرحلة عادة تحفل بالمقومات الأسس للقصة من فكرة رئيسية، وبناء، وحبكة، وبيئة زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة والأسلوب. فالفكرة موجودة، ومجريات الرحلة هي بناءها وحبكتها، والبيئة الزمانية ومكانية محددة، والشخصيات أدت دورها واقعيا، وبطلها الرحالة نفسه، ونأتي إليه اللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع  المستند إلى الواقع، وكثير من الخيال في الموضوعات التي يطلق فيها الرحالة العنان لخياله."

ومن أبرز ما يميز أدب الرحلات هو تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، ولكن أبرزه أسلوب الكتابة القصصي، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى، مما حدا شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة بأنه "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لميطلعوا على ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حينا آخر"

ونرى أن  كثيرا من أصحاب أدب الرحلات  اهتموا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب، وقصوا ماعندهم من أساطير وخرافات، واعتمدوا على المشاهدة والحكاية فغلب في رحلاتهم الطابع القصصي والروائي. فالرحلة تعتبر أختا شقيقة للرواية والقصة فنجد في قراءتها لذة ومتعة.

وبهذا يكون أدب الرحلة صورة قديمة للقصة بحيث توجد فيه عناصر أساسية مثل السرد، والحوار، والوصف وغيرها وهو يجمع بين المتعة والفائدة.

النموذج:

### رحلة ابن بطوطة (الخروج من طنجة)

**الرحالة ابن بطوطة: ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي في مدينة طنجة في يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة 703 هجرية الرابع والعشرين من فبراير سنة 1304 ميلادية لأب من أوساط الناس، أما ابن بطوطة فهو الاسم الذي اشتهر به، كان ابن بطوطة مفطورًا على حب الرحلة والسفر والتجوال، بدأ رحلته سنة 725 هجرية قاصدًا الحج وكان في الثانية والعشرين من عمره، يقول د. حسين مؤنس: إن ابن بطوطة كان مُهَيئًا نفسيًّا وجسديًّا للمطلب العسير الذي أراده وأعانه الله عليه فاستمتع بما أراد وأمتعنا معه، ومن لطائف حديثه في رحلته أنه كان يذكر كل شيء حتى الصادع الذي يلم به أو المغص الذي يصيبه أو الرمد الذي يشكوه، فيزيدنا استمتاعًا بقراءته، فنحن مع مُحَدِّث بارع وحديثه كله مفيد، حتى حديثه عن أمراضه وأوجاعه عظيم الفائدة فهو يعطينا فكرة عن الأدوية وأساليب التداوي في أيامه، ويكشف لنا عن حقيقة أكبر وهي أن مستوى العلاج لم يكن منخفضًا كما نظنº فقد كان للناس معارف طبية كثيرة جدًّا، وكانت أدويتهم على بساطتها نافعة ناجعة، وهذا جانب من جوانب الحضارة الإسلامية عظيم، وإليك نماذج من رحلات ابن بطوطة.**

**الخروج من طنجة:**

**قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدًا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام -، منفردًا عن رفيق أنس بصحبته، وركب أكون في جملتهº لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم، فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبًا، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبًا، وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة.**

**قال ابن جزي، أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة.**

**وصلنا مدينة الجزائر، وأقمنا بخارجها أيامًا إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعًا على منبجة إلى جبل الزان، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية.**

**وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته، فانتهى خبره لابن يد الناس المذكور، فانتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم.**

**ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فأشار عليّ أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء مني، فأبيت وقلت: إن قضى الله - عز وجل - بالموت فتكون وفاتي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز، فقال لي: إما أن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء، وتصحبنا خفيفًا، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق، ففعلت هذا وأعارني ما وعد به جزاه الله خيرًا، وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية.**

**وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها، وأصابنا مطر جود، فاضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء، يُسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره، وكان الإحرام منها خَلِقًا فعبث مكانه إحرامًا بعلبكيًّا، وصرَّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما يفتح به عليَّ في وجهتي.**

**ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة، ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها أيامًا ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لأجل الخسوف في الطريق، وتجردنا للسير، وواصلنا الجد، وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا مدينة تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي، ولقاء أبي عبد الله النفزاوي، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل عليَّ بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين.**

**قال ابن جزي: أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن إبراهيم السلمي، هو ابن الحاج البلفيقي: أنه جرى له مثل هذه الحكاية قال: قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديثة المسلسل البعيد عن أبي عبد الله بن الكماد، وحضرت المصلى مع الناس، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام، وأنا في ناحية لا يسلم عليّ أحد فقصد إليَّ شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل عليَّ بالسلام والإيناس وقال: نظرت إليك رأيتك منتبذًا عن الناس، ولا يسلم عليك أحد، فعرفت أنك غريب، فأحببت إيناسك، جزاه الله خيرًا. ثم وصلنا إلى مدينة قابس، ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرًا لتوالي نزول الأمطار.**

**ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس، وصَحَبَنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس، أو يزيدون، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم، وعصمنا الله منهم، وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس، فأمنا بها مدة، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس، فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم، من عام تسعة وعشرين وسبعمائة ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة، وقد رفعت العلم، وتقدمت عليهم، وأقام الركب في طرابلس خوفًا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت، وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة، وحالت دون ما راموه من أذيتنا.**

**ثم توسطنا الغابة، وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابد، إلى قبلة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس، ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتًا لبعض طلبة فاس، وبنيت بها بقصر الزعافية، وأولمت وليمة حبست لها الركب يومًا، وأطعمتهم.**